العنصر الصوري

المقصود من العنصر الصوري هو: العنصر التخيّلي، متمثّلاً في إيجاد علاقة بين شيئين لا علاقة حقيقية بينهما في الواقع، مثل قوله تعالى عن الكفّار (إنْ هُمْ إلاّ كالأنْعامِ) حيث أوجد علاقة بين الكفّار وبين الأنعام . وإحداهما غير الأخرى في عالم المخلوقات . وهي: الشهوانية وضعف الوعي... الخ وبهذا تتّضح المسوّغات الفنية إلى صياغة الصور، حيث إنّ الهدف منها هو: تعميق الحقائق ما دمنا نعرف أنّ مقارنة شيء بآخر من خلال تماثله أو تضاده أو اشتراكه في سمات محدّدة، أو التوكّؤ على أشياء حسّية أو ثانوية، يوضّح ويبلور ويقرّب إدراك الحقائق في الذهن.

. أهمّيته:

العنصر الصوري يُعد أحد العنصرين الرئيسين في النّص الأدبي (الإيقاع والصورة)، بحيث يتميّز التعبير الفني عن غيره من خلال توكُّئه على العنصرين المذكورين في الدرجة الأولى، لأسباب أوضحناها، في مقدمة هذا الكتاب.

. أشكاله:

البلاغة الموروثة تحصر الصور في رقم محدّد هو: التشبيه، الاستعارة، الكناية... الخ، إلاّ أنّ ما نجده من تنوّع الصور من جانب، والفوارق الدقيقة فيما بينها من جانب آخر، وطبيعة التصوّر الجمالي لوظيفتها من جانب ثالث، يقتادنا إلى تصنيفها وفق ما يلي:

١ ـ التشبيه

التشبيه هو: إحداث علاقة بين طرفين من خلال جعل أحدهما . وهو الطرف الأوّل . مشابهاً للطرف الآخر، في صفة مشتركة بينهما.... من نحو قوله تعالى: (وَلَهُ الجَوار المُنْشئات في البَحْرِ كالأعْلامِ)، حيث شبّه (السفن) في البحر، (وهي الطرف الأوّل) شبّهها بـ (الجبال) في البر، والصفة المشتركة بينهما هي صفة: بروز السفن في الماء وبروز الجبال في الأرض.

والمعيار الذي يحدّد (التشبيه) عن غيره من الأشكال الصورية هو: وجود (أداة) تقوم بعملية ربط بين الطرفين، أو وجود (عبارة) تقوم مقام (الأداة)، بحيث يظلّ كلّ من الطرفين مستقلاً عن الآخر، وتُفرز الحدود بينهما من خلال هذه الأداة.

وأدوات (التشبيه) ثلاث، وهي: (الكاف) و(كأنّ) و(مِثل)،...

وأمّا (العبارات) التي تقوم مقامها فيمكن رصدها في كل عبارة تعطي معنى التشبيه مثل عبارة (يشبه، يحكي، يحسب، يضارع، يماثل، يخال...الخ).

أدوات التشبيه:

أدوات التشبيه . كما أشرنا . ثلاث هي: (الكاف) (كأنّ) (مِثل). هذه الأدوات الثلاث: تفترق كل واحدة منها عن الأخرى: في خصّيصة تمتاز بها، بحيث تعطي كل واحدة درجة من التشبيه تختلف عن الدرجة التي تعطيها الأداة الأخرى. فـ (الكاف) تمثّل الدرجة المألوفة أو ما يمكن تسميتها بـ (المنحنى المتوسط) أي (المعدّل المتوسط) من التشابه بين الطرفين، وأمّا (كأنّ) فتمثّل الدرجة الأقلّ عن التوسّط، في حين تمثّل (مثل) الدرجة الأعلى من المتوسط على هذا النحو الذي نبدأ بتوضيحه:

١ . (الكاف): قال تعالى: (والّذِينَ كَفَروُا أعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بقيعَةٍ، يَحْسَبُهُ الظّمآنُ ماءً حَتّى إذا...).

٢ . (كأنّ): قال تعالى (إنّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ، كَأنّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ).

٣ . (مِثْل): قال تعالى (قال: يا وَيْلَتى أعجَزتُ أنْ أكُونَ مِثْل هذا الغُرابِ...).

الملاحظ أنّ التشبيه الأوّل (كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ...) قد اعتمد أداة (الكاف) حيث شبّه عمل الكافر بـ (السراب) الذي هو عبارة عن (شعاع) يتصوّره الرائي ماءً، ومعنى هذا أنّ الرائي أو الظمآن قد تصوّر خطأ بأنّ ما هو (شعاع) هو (الماء)، كذلك الكافر: قد تصوّر خطأ بأنّ عمله في الدنيا (نافع) له في الحياة الآخرة،... فالعنصر المشترك بين الطرفين هو (التصوّر المخطئ) الذي يجسّد درجة مألوفة أو متوسطة من التشابه بين عمل الكافر والسراب.

ولكن حينما نتّجه إلى التشبيه الثاني (إنّها ترمي بشرر كالقصر، كأنّه جمالت صفر) نجد أنّ هذا التشبيه قد اعتمد أداتين هما (الكاف) و(كأنّه) وهذا الاختلاف بين الأداتين يُفصح عن وجود فارق بينهما، بخاصة أنّ الطرف الأوّل من التشبيهين هو (الشرر) حيث شبّهه مرة بأداة (الكاف) ومرة بأداة (كأنّ)، ممّا يعني أنّ الفارق بينهما هو في (درجة) تبيين أوجه الشبه، ... لقد شبّه (الشرر) بالقصر... وهو البنيان العظيم من خلال أداة (الكاف) لأنّ الشرر في ضخامته يشبه (البنيان) في ضخامته أيضاً، وهذا هو الدرجة المألوفة أو المتوسطة من التشابه... ولكنّه شبّه (الشرر) في الجملة الثانية بالناقة الصفراء من خلال الأداة (كأنّ)، مشيراً بذلك إلى التشابه بين اللونين: لون الشرر الذي يجمع بين الصفرة والسواد، ولون الناقة التي تجمع بين الصفرة والسواد:

إلاّ أنّ الملاحظ أنّ التشابه بين اللّونين (لون الشرر والناقة) ليس بقوّةِ ودرجة التشابه بين حجم الشرر وحجم البنيان،... ولذلك استخدمت الأداة (كأنّ) بدرجة أقل من المتوسط، في حين استخدمت الأداة (الكاف) بدرجة مألوفة هي (المتوسط) من التشابه: كما لحظنا.

أمّا إذا اتجهنا إلى الأداة الثالثة (مِثْل) للحظنا أنّ درجة التشابه بين مواراة الغراب للقتيل ومواراة ابن آدم لأخيه: تفوق وتتجاوز المعدّل الوسط من التشابه...، إنّ المواراة هي عملية مشتركة بين طرفي التشبيه بنحو لا تختلف مادة إحداهما عن الأخرى... فالشرر هو من مادة تختلف عن البنيان القائم على الحجر والحديد ونحوهما، كما أنّه يختلف عن مادة اللون الذي يفرق بين الشرر والناقة، بينما نجد في عملية المواراة لجسد ميت، عنصراً (متماثلاً) هو: دفن الجسد البشري والحيواني كليهما تحت الأرض، لذلك جاءت الأداة (مثل) ذات درجة عالية في رصد أوجه التماثل بين مواراة الإنسان والطائر، بل أنّ كلمة (مثل) تفصح عن الفارق بينهما وبين (التشابه)، فأنت حينما تقارن بين تفاحتين (متقاربتين) أو (متساويتين) في اللون: تقول (هذه (مثل) تلك). لكن إذا كان لون إحداهما مشابهاً للأخرى (كما لو كان أحد اللونين أقل أو أكثر صفرة أو حمرة أو بياضاً من الآخر)، تقول حينئذ: (هذه كتلك أو كأنّها) حسب درجة التفاوت في ذلك، بالنحو الذي أوضحناه.

أمّا (العبارات) التي تقوم مقام (الأداة)، فتتمثّل في جملة من الأسماء والأفعال التي تعطي نفس الدلالة التي تعطيها (الأداة) أو ما يقاربها، وهذا من نحو عبارة (بمنزلة) وهي (اسم) حيث تقوم مقام الأداة (مثل): قال النبيّ صلّى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام:

١ . ((أنت منّي بمنزلة هارون من موسى))، حيث أنّ عبارة (بمنزلة) تعطي نفس الدلالة التي تعطيها عبارة (مثل) كما هو واضح.

ويُعدّ استخدام المصدر لوجه الشبه من نحو قوله تعالى (فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ) نموذجاً للعبارة التي تقوم مقام الأداة (مثل)، نظراً لتماثل الشرب بين الطرفين: كما هو بيّن. وهذا عن استخدام المصدر مجرّداً عن أداة التشبيه. لكن إذا استخدمت الأداة (الكاف) نستكشف حينئذ أنّ درجة التشبيه هي دون الدرجة التي تعنيها (مثل) ... وهذا من نحو قوله تعالى (يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ) حيث أنّ استخدام (الأداة) . مضافاً إلى ما يقوم مكانها وهو المصدر . يعني أنّ النص يستهدف درجة من التشبيه لا تصل إلى (المِثل)، بل: الأقل أو الأكثر منه، فالنص قد استهدف

تشبيه غليان المهل بغليان الماء الشديد الحرارة، ولا شكّ أنّ شدّة الحرارة في نار جهنم أكثر من الماء الحار الذي شبّه به، ولكن بما أنّ (المهل) هو من مادة معدنية أو زيتية)، والماء من مادة أخرى، حينئذ فإنّ درجة التشابه لا تصل (المِثّل)، بل إلى ما هو مألوف أو متوسط من التشابه، متمثّلاً في أداة (الكاف) التي لحظناها.

ومن العبارات التي تقوم مقام (الأداة) عبارة (حَسِبَ) . وهي (فعل)، حيث تقوم مقام الأداة (كأنّ). قال تعالى:

٢ . (إذا رأيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤلُؤاً مَنثُوراً)، حيث أنّ (حَسِبَ) تعطي معنى الظن والتخيّل اللذين يجسّدان الدرجة الأقل من (المتوسط)، فتكون بذلك مماثلة للأداة (كأنّ): كما أوضحنا... ويدلّنا على ذلك: استخدام القرآن الكريم لهذا الجانب حيث استخدم (كأنّ) في جميع التشبيهات المرتبطة بالحور والولدان دون أن يستخدم أداة (الكاف) أو (مِثل) إلاّ في مورد واحد هو (كأمثال اللّؤلؤ المكنون) حيث جاءت (الكاف) مقترنة بـ (مَثَّل)، فيما سنوضّح سرّ ذلك فيما بعد، وخلا ذلك، فإنّ أداة (كأنّ) استُخدمت في تشبيه الحوار والولدان باللؤّلؤ والياقوت ونحوهما مثل: (كأنّهم لؤلؤ مكنون) (كأنّهنّ بيض مكنون) (كأنّهنّ الياقوت) حيث نستخلص من هذه النماذج أن (حَسِبَ) تقوم مقام الأداة (كأنّ) ما دامت قد استخدمت في التشبيه (حسبتهم لؤلؤاً منثورا) بنفس الاستخدام الذي تمّ بالنسبة إلى الأداة (كأنّ) في موارد تشبيه الحوار والولدان باللؤلؤ والياقوت: كما لحظنا.

٣ . وأمّا العبارات التي تقوم مقام الأداة (الكاف) فيتمثل استخدامها في ألفاظ تعطي معنى (المشابهة) مثل: (يشبه) ونحوهما، وهي ألفاظ قد تقوم أيضاً مقام الأداتين (كأنّ) و(مثل)، ولكنّها . في الغالب . تظّل إلى التعبير العلمي أو العادي أقرب منها إلى التعبير الفني، لأنّ تصريحنا بأنّ هذا الشيء (يشبه) ذلك الشيء هو كلام تقريري مباشر، وليس تركيباً يعتمد إحداث علاقة بين شيئين: كما هو واضح.